

التنوع والإختلاف على أرضية المواطنة والإسلام والديمقراطية

حسين درويش العادلي
abuhabib1@hotmail.com

((1))

لعل قضية التنوع والإختلاف بين أبناء النوع الإنساني من أهم التحديات التي تحول دون التعايش وإبداع التجارب الإنسانية والوطنية السلمية والمُنتجة، فطالما أنتج الإختلاف - المؤسس على التنوع- التناحر والتصادم جرّاء الفشل في وعي حقيقة الإختلاف ومديات استحقاقاته الطبيعية والحلول المقترحة للحيلة دون جعله أزمة تشل الحياة الإنسانية وتقضي على إمكانات إبداع تجارب التعايش والتناغم الإنساني والوطني. يمتاز الإنسان بكونه كائن واع ومُريد ومسؤول، وأنَّ معظم أفعاله مُعلّله وهادفة إذ تصدر عن وعي وإدراك وقصد معين. وهنا كان لزاماً أن يمتلك الإنسان ذخيرة الوعي السليم لطبيعة وغاية الفعل الذي يُريد إقراره في حرم الحياة.. وإلا سقط في مستنقع العبثية أو الإنحراف.. وهذا لب جهد الرسالات والمذاهب في سعيها لخلق تجارب إنسانية صالحة ومسؤولة ومُنتجة.

وتزاد القضية مأساةً فيما لو صدر الفعل الإنساني عن وعي خاطيء لحقائق وموضوعات الحياة، وبالذات لو أُريد لهذا الفعل أن يكون تأسيسياً، بمعنى أن يُؤسس عليه تجربة أو يُقام عليه كيان عام يمس جوهر الحياة وقضاياها الهامة بالصميم ككيان أمة أو كيان دولة. ولعلي لا أجنب الحقيقة إن قلت: بأنَّ معظم إشكاليات واقعنا العراقي الحالي تصدر عن وعي مغلوّط لحقائق الحياة.. وهذا الوعي هو ما يُؤسس عليه من قِبَل العديد لصياغة واقعنا العراقي الجديد. إنَّ قضايا وممارسات التصفية والعزل والتهميش والإقصاء المتقابل بين أفراد وشرائح المجتمع غدت شاخصة في سلوكنا العام، وهي تصدر في أغلبها الأعم عن جهل وعن وعي منحرف لقواعد الحياة وشروط إنجاز التجربة الإنسانية والوطنية. وهنا تأتي قضية التنوع والإختلاف الإنساني كأحدى موضوعات الفهم الخاطيء الذي يُؤسس عليه الكره والعزل والتصادم. فالوعي الإنساني والوطني السائد يعتمد إحدى الصيغتين: إما الوحدة أو التشتت في التعاطي مع كياننا العراقي الإنساني والوطني، وفي تحليلنا لنمط هذا الوعي الحدّي نلاحظ إختراجه لمسألة تمايزنا العرقي والطائفي.. والذي أسس عليه كإختلاف لا بد وأن يقود إلى الخلاف الذي يستدعي إما الإندماجات القسرية أو الإنقسام والتشتت والتجزئة!!

إنَّ شعور الإختلاف القائم على إختلاف خصوصياتنا الذاتية أسقط فعلنا الإنساني والوطني في مستنقع التقابل الصارم بين الوحدة والتشتت إنطلاقاً من الفهم الخاطيء للخصوصية العرقية والطائفية ومديات تكوينها وفعلها واستحقاقاتها، وكأننا نخترن أنَّ إقامة أية تجربة إنسانية أو وطنية تستدعي تشابهنا المضموني وتماثلنا التكويني وإلا سقطت التجربة!! من هنا نلمس إسقاطات هذا الفهم على واقعنا الجديد والمتمثل بعدم قبول الآخر المختلف عرقياً أو مذهبياً أو ثقافياً.. إذ أسس على قضية الإختلاف الخلاف ثم الهيمنة أو النفي والإقصاء، فكونك مختلف عني في العرق أو الطائفة أو.. فسأعمل للهيمنة عليك أو نفيك وإقصائك عن

الموقع والإمْتياز والإستحقاق، وهو وعي يختزن وجوب التماثل بين الناس وتوحدهم العقيدي والفكري والعريقي.. وهو خلاف سنة الكون وطبيعة الأشياء.

إننا نحاول هنا وعلى أرضية الإسلام والديمقراطية وعي مسألة الإختلاف على أساس كونها القاعدة والتماثل هو الإستثناء، ومثل هذا الوعي سيُنتج الإعتراف بالآخر المختلف والقبول به والتعايش معه. ولعل هذه القضية من أهم المشتركات البنيوية بين الإسلام والديمقراطية والتي تُنتج التعددية على أرضية الإختلاف والتنوع.

((2))

إنّ في تأكيد الديمقراطية على قيم المساواة وقبول الآخر والحوار والتعايش إنطلاقاً من مبدأ التعددية، هو ذاته الجذر التي يُقرره الدّين كأساس لبناء أية تجربة إنسانية. ولعل خير مصداق لذلك ما جاء في الآية المباركة {يا أيها النّاس إنّنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ليتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليمٌ خبير} 13 الحُجرات، إذ تؤكد هذه الآية على جملة من الحقائق الأساسية، منها:

أولاً: اتحاد الإنسانية من حيث المصدر، إذ أنّ البشرية بأجمعها تتحدر من مصدر واحد في الخلقة وهو الله تعالى، ومن سبب موضوعي واحد في التنازل والتكاثر وهو الذكر والأنثى، وهذا الاتحاد بالمصدر والتوحد بالسبب في الوقت الذي يؤكد وحدة النشوء فإنه يلغي أي تراتب زائف تضعه الإنسانية فيما بينها، فكل قيمة أو مبدأ أو نظرية تحاول تقسيم الإنسانية وتجزئتها خلقياً بسبب اللون أو العرق أو الإمتياز.. فإنها مرفوضة دينياً لأنها تصطدم مع الطبيعة الإنسانية التي تعود لمصدر واحد لا يعرف التمايز المصطنع الذي تضعه الذوات الفاقدة للسماحة أو اللاهثة وراء الإمتياز من خلال العبث بوحدة هذا الخلق وتساويه في الطبيعة والحق والواجب، ودليل ذلك اللغة التي استخدمتها الآية المباركة إذ أفتتحت بخطاب عام للنّاس دون أية فوارق أو تمايزات ذاتية أو خارجية مكتسبة لاحقاً {يا أيها النّاس}، لتؤكد وحدة مصدر الخلق {إنّا خلقناكم}، ولتؤكد وحدة السبب الموضوعي في إنتاج التكاثر {من ذكرٍ وأنثى}، والهدف هو توكيد اتحاد الإنسانية من حيث النوع والهوية والجوهر.. من هنا فلا قيمة لأي اعتبار زائف يُصادر هذه الوحدة التكوينية للإنسانية من خلال مصادرة استحقاق هذا الإنتماء الإنساني المشترك في التكافؤ والمساواة.

ثانياً: الجعل التكويني للتنوع الإنساني، فالآية المباركة تؤكد أنّ التنوع الإنساني القائم على أساس الشعوب والقبائل هو حقيقة خلقية غير زائفة أو مصطنعة، فالجعل هنا {وجعلناكم شعوباً وقبائل} هو جعل تكويني أي خلقي مقصود من الله تعالى، وهذا الجعل يؤدي بالضرورة إلى التنوع الإنساني على أساس التّسبب والتشكّل في كل مقطع زمني من حياة الإنسانية عبر التّاريخ، وهنا فهذا التنوع يُعتبر جوهر حقيقي لا يستمد وجوده من الإعتبارات الإنسانية الناتجة عن المواضعة أو الإنتراع بل يستمد وجوده من الخالق الموجد لهذا الجعل التكويني، فالخالق تبارك وتعالى هو الجاعل هنا، أي هو الخالق لهذا التنوع الإنساني، ويؤسّس عليه ضرورة الإعتراف والتمكين لهذا التنوع الإنساني، فلا يملك أي فرد أو أية جماعة حق إلغاء هذا التنوع في الخلق واستحقاقات الخصوصية الذاتية لكل جماعة إنسانية تختلف في العرق أو اللون أو اللغة.. إنّ كافة هذه الإختلافات طبيعية بذاتها كونها تقوم على حقيقة الإختلاف المُنتج للتنوع في الخلق الإنساني {ومن آياته خلق السموات والأرض وإختلاف ألوانكم وألوانكم..} 22 الروم.

ثالثاً: الفاعلية الإنسانية كعلة لهذا التنوع، فهذا التنوع الخلقي {شُعوباً وقبائل} يقوم على أساس قاعدة كونية كبرى تعتبر الإنسان مطلق الإنسان جزءاً من منظوماتها الوجودية، وهي: أن الكون لا يمكنه الحركة والفاعلية إلا وفق قواعد وآليات الاختلاف المنتج للتنوع، فالتشابه والتماثل يقضي على إمكانية نشوء الحركة والدافع الكوني والوجودي المطلوب لنشوء الحياة،.. فهل يمكن أن نتصور نشوء حياة ما مع تشابهها التكويني وتماثلنا المضموني؟! وهل يمكن تصور حركية كونية مع قيمومة التماثل الكوني في النوع؟! أبدأ، فذلك سيقود إلى استحالة إبداع أو إنشاء أية حركة كونية وتجربة إنسانية. ويؤسس على هذا ضرورة الإعراف والإحترام لهذا التنوع فيما يقود إليه من خصوصيات ذاتية لأي فرد أو جماعة بشرية.

من جهة أخرى: إذا كان التنوع هو جوهر الحركة والفاعلية الإنسانية، فما هو السبيل لحل مشكلة الخلاف الناجم عن اختلاف الذوات الفردية والجماعية المتشكلة بفعل التمايز المنتج على أساس التنوع؟ فالإختلاف سيقود إلى تمايز كينونة الأول عن الثاني عن الثالث... في رحم الحياة، وسيأخذ هذا التمايز أشكالاً متعددة في التعبير عن ذاته معرفياً وثقافياً وتجريبياً.. وهو ما سيقود إلى الخلاف.

رابعاً: حقيقة التعارف لحل إشكالية الخلاف: وهنا يطرح الدين مبدأ التعارف كأساس تلتقي عليه وحوله الذوات الفردية والجماعية لتوجيه هذا الإختلاف والتنوع الإنساني الضروري كي يكون رحمة لا نقمة، من خلال إنتاجه لقواعد الإعراف المتبادل والتلاقي والتناغم والتعاون المشترك لإنتاج تجارب العدل والخير على أرضية المساواة والتكافؤ والإعراف المتبادل بين الجماعات الإنسانية على اختلافها وتنوعها.

إنّ الأداة والآلية الموضوعية لإنتفاخ الشعوب والأمم الإنسانية المتنوعة على بعضها البعض يستند في العرف الديني على قاعدة التعارف {لتَعَارَفُوا} كأساس تفتتح من خلاله أبواب التناغم والتعايش الإنساني، فالتعارف وفق هذه الرؤية إنما هو حقيقة موضوعية تنتج عن التنوع، فلولا التنوع لانتقى التعارف، فلا قيمة له إلا مع هذا الجعل التكويني الذي ميّزنا إلى شعوب وقبائل وأمم، فيكون التعارف هو الإطار الإنساني التبادلي في الإعراف والمعرفة والتأثير والإستفادة المتقابلة ضمن تدافعية إنسانية هادفة ونامية ومُنتجة لحل مشكلة الخلاف الناجم عن الإختلاف الطبيعي.

خامساً: حقيقة الكرامة، إذ أنّ الشرف والمنزلة الواهبة للكرامة الحقيقية في ساحة الوجود تتأتى من خلال تأطير الخلاف الإنساني بالقيم والفضائل على صعيد الذات والمحيط الإنساني بغض النظر عن الأطر الخاصة للإنتساب الإنساني إلى شعب وقبيلة وأمة، أي بغض النظر عن الخصوصيات الذاتية.. والتقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَأُكُمْ} في العرف الديني هي العنوان الجامع لكل المبادئ والقيم والفضائل والأخلاقيات الصالحة والسليمة والحقة في حرم الحياة، فالتقوى هي استحضار وتطبيق القيم العُلّيا الصالحة والهادفة والبنائية في كل فعل يتصدى له الإنسان، إنها فعل الإندكاك بالخير والرحمة والعطاء الذي يأمر بتجسيده الله تعالى في ساحة الحياة، فليست التقوى عنواناً معلقاً في الهواء.. فلكي يكون الإنسان متقياً عليه تجسيد مفرات الخير على الأرض لينال وسام السماء.. ووسام السماء لا يُمنح للظلم والتمييز والشّر والمنكر، ولن يُنال بالإستبداد والسحق لخصوصيات البشر الذاتية وحقوقهم الطبيعية، بل يُنال من خلال إقرار مبادئ العدل والتكافؤ والمساواة والفضيلة الإنسانية وبنبذ أية فوارق تُجزّء الإنسانية أو تحرمها حقها في التعبير والعيش أو تصدر آمالها وتطلعاتها

البريئة والصالحة،.. إنَّ هذه القاعدة هي التي تؤسِّس للمجتمع الإنساني الصالح المتحاب والمتألف.

((3))

نقول: إنَّ بوصلة الإتجاه القيمي للإسلام في نظرته للتنوع والإختلاف والخلاف تلتقي في عمقها والديمقراطية التي تؤسس كيانها على احترام التعددية والخصوصية، وهو ما يقود في عرف الإسلام والديمقراطية إلى التكافؤ والمساواة والعدالة بين أفراد النوع الإنساني على تنوعهم العرقي والطائفي والثقافي. ومثل هذا الإلتقاء هو ما يؤسِّس لدولة المواطنة القافزة على التناقضات العرقية، وهو ذاته ما يؤسس لتجربة إنسانية ووطنية تجمع بين الأصالة والحدثة عن طريق تناغم المنظومات المشتركة بينهما لإنتاج الوعي السليم والتجربة الصالحة.